القدس الشريف في مدونات الرحالة المغاربة والاندلسيين

أ.د ناطق صالح مطلوب*

تمهيد :

قد لا نبتعد عن الحقيقة اذا ما قلنا ان أهل المغرب والأندلس كانوا من اكثر الناس رحلة وتغربا في طلب العلم والمعرفة والاطلاع حتى بدت الرحلة العلمية وكأنها سمة من سماتهم ، فما من عالم من علمائهم الا وله رحلة إلى خارج بلده قد تطول او تقصر سعيا وراء شيخ ذي علم وشهرة وفي تراجم بعضهم ما يشير الى ذلك .

ولقد حظيت مدن الشام ، دمشق ، وحلب،وحمص، وحماة،والقدس الشريف، والخليل وغيرها بمكانة مرموقة لدى طلاب العلم الراحلين من مختلف أقاليم العالم الإسلامي ، فقد وجدوا فيها مراكز علمية وشواهد لا ينبغي فوتها دون التزود من شيوخها المتصدرين فيها ،ومن الأماكن المقدسة في القدس والخليل وما عرفت به المدن الاخرى من اثار رغبت الراحلين وشدتهم الى بلوغ هذه المراكز للوقوف عليها والاعتبار باثارها .

وقد امتلكت القدس الشريف أزمة وعناصر الاستقطاب كلها،ونالت فضلاً على غيرها من مدن الشام لما اختصت به من المكانة والقدسية في نفوس المسلمين ، فهي مدينة باركها الله ، وبارك ما حولها ، اليها اسري الرسول الكريم محمد (ﷺ) " سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من اياتنا انه هو

* قسم التاريخ/كلية الاداب/جامعة الموصل.

السميع البصير " [1]ومن مسجدها الاقصى عرج به (ﷺ) الى السماء،وهي بعد هذا اول القبلتين اللتين توجه اليهما المسلمون في الصلاة،وثالثة الحرمين اللذين تشد اليهما واليها الرحال ، فقدروى عن ابي سعيد الخدري ان الرسول (ﷺ) انه قال (لاتشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد ، المسجد الحرام والمسجد الاقصى ، ومسجدي هذا)[2].

وقد روى اهل الاثار الكثير من احاديث الفضائل التي خصت مدينة القدس الشريف ومسجدها وما يلحق الزائر لها والمجاور بها والعابد من ثواب عميم[3].

وقد اسهمت مدينة القدس الشريف كغيرها من مدن الشام اسهاما كبيراً في الحركة العلمية لتغطي بالاهتمام كل العلوم الشرعية وفي مقدمتها علوم القران الكريم ، والحديث النبوي ، والفقه واصوله ،وعلوم العربية وادابها فضلا عن العلوم العقلية . وما كان لهذه الحركة ان تدوم وتتنامى لولا العدد الكبير من معاهد العلم التي كانت في المدينة والتي تناولتها ايدي اولي الامر وكبار القوم وفاعلي الخير من الموسورين بالرعاية والاعمار،وما دخل في رسم هذه المعاهد من مشاهير الشيوخ من اهل القدس وبلاد الشام او من دخل الى المدينة معتليا كرسي التعليم احتسابا او بجراية . وقد ذكر مجير الدين الحنبلي (ت ٩٢٨ هـ) اكثر من خمس واربعين مدرسة ، وما يقرب من خمس وعشرين زاوية ورباط ما عدا المساجد والمراكز العلمية الاخرى .[4]

والداخلين مدينة القدس الشريف من اهل المغرب والاندلس نخبة طيبة من العلماء وطلبة العلم والمجاهدين استوعبنا ذكرهم في البحث الموسوم : ((الرحلات العلمية بين المغرب الاسلامي والقدس الشريف

حتى القرن العاشر الهجري)) والحقيقة ان لاهـــل المغـرب والاندلـس حضور دائم ووجود كبير وهم بذلك يمثلون جالية من اكبر الجاليات فـــي المدينة ومن اكثرها تأثيرا في الحياة العامة ففي المدينة حارة تعرف بحارة المغاربة [٥] وجامع يعرف بجامع المغاربة [٦] ومن ابواب القـــدس بـاب يعرف ببـــاب المغاربـــة [٧] ومـــن اوقـــاف الملـــك الافضـــل الايوبـــي (ت ٦٢٢هـــ) المدرسة الافضلية في حارة المغاربة اوقفها لفقهاء المالكيـة منهم في حدود سنة (٥٨٩ هـــ) [٨]وباعلى حارة المغاربة زاوية تعـــرف باسم زاوية المغاربة اوقفها الشيخ عمر بن عبد البله المغربي المصمـــودي المجرد سنة (٧٠٣هـــ)[٩] .

وقليل هم الذين اعتنوا بتدوين رحلاتهم العلمية ومشـــاهداتهم فـــي مؤلفات خاصة وما وصلنا من هذه المؤلفات يعـــد مـــن اهـــم المصـــادر والشواهد التاريخية التي سجلت لنا معلومات دقيقة موثقـــة عـــن المدينـــة ومسجدها الاقصى ومعالمها الحضارية الاخرى فضـــــلا عـــن مجـــالس المناظرة العلمية وما جلب انتباه الراحلين ونال استحسانهم فدونوه .

وقد وقع اختيارنا على اربع رحلات هي :-

- قانون التأويل [١٠]، لابي بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن العربي الاشبيلي المتوفي سنة (٥٤٢هـــ) [١١]رحل المذكور مع ابيه الى المشرق سنة (٤٨٥هـــ) وعمره سبع عشرة سنة ودخل مصر والشام والعراق والحجاز ،كدخل القـــدس الشريف ومكث فيها ثلاث سنوات لقي فيها عددا من شيوخ المدينة والوافديـــن اليها [١٢] .

- والرحلة المغربية [١٣] لابي عبد الله محمد بن محمد بن علي العبـدري الحيحي (كان حي سنة ٦٨٩هـــ) [١٤]، دخل القـــدس الشريـــف فـــي طريق عودته من الحجاز واقام فيها خمسة ايام .

- وتحفة النظار في غرائب وعجائب الاسفار ، لابي عبد الله ابن بطوطة محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي المتوفي سنة (٧٧٩هـ) [١٥]دخل القدس الشريف ولقي فيها عددا من فضلاء المدينة .[١٦]

- وتاج المفرق في تحلية علماء المشرق ، لابي البقاء خالد بن عيسى بن احمد البلوي الاندلسي (كان حيا سنة ٧٦٧هـ) [١٧]القي في القدس الشريف مشاهير شيوخها وادبائها وحمل عنهم مؤلفاتهم ومروياتهم .

وميزة هذه الرحلات عرضها لحال المدينة واحوالها ومعالمها بشئ من التفصيل قلما نجده في مصادر اخرى مما يغني النظر في غيرها .

- مشاهدات الراحلين

دخل ابوبكر بن العربي صحبه والده مدينة القدس في سنة (٤٨٥هـ) ودون مشاهداته والشيوخ الذين حضر مجالسهم العلمية وسمع منهم ولعل اهم ما ورد في كتابه هذا وصفه للحركة العلمية وللنشاط الواسع الذي كان يكتنفها في مجالي المناظرة والحوار الفكري ، وواضح من كلامه ان المدينة كانت ملتقى اهل العلم من كافة الاجناس والاديان والطوائف جمعتهم هذه المجالس للمناظرة في مسائل من العلم عديدة من دون قيود تحد من حرية المتناظرين للتعبير عما يعتقدون وفي ذلك دليل على رفعة الحركة الفكرية في المدينة ورسوخها بما يسمح للاخرين باظهار خلجات افكارهم بلا حدود فقد كان التناظر بين المسلمين والنصارى واليهود في امور من مسائل الدين والعقائد امراً مألوفاً ، وقد حضر ابن العربي مجلسا تناظر فيه التستري حبر اليهود والامام

الطرطوشي (ت٥٢٠هـ) وشهدت اروقة المدينة نشاطا علميا وفكريا لفرق اسلامية مثل الكرامية والمعتزلة والمشبهه .[١٨]

وشهد ابن العربي مجالس الشافعية بالمناظرة والحوار في مدرستهم عند باب الاسباط وبحضور شيخهم ابن الصائغ، وحواراً علمياً جمع بين الشيخ عطاء المقدسي الشافعي والشيخ الزوزني [١٩]، وبين القاضي الريحاني والصاغاني وفي ذلك يقول : (وقد حضرت في بيت المقدس طهره الله بمدرسة ابي عتبة الحنفي والقاضي الريحاني يلقي علينا الدرس في يوم جمعة فبينما نحن كذلك اذ دخل علينا رجل بهي المنظر على ظهره اطمار ، فسلم سلام العلماء ،وتصدر في صدر المجلس بمدارع الرعاء ، فقال له الريحاني من السيد ؟فقال له : رجل سلبه الشطار امس وكان مقصدي هذا الحرم المقدسي وانا رجل من اهل صاغان من طلبة العلم ، فقال القاضي مبادرا سلوه على العادة في اكرام العلماء بمبادرة سؤالهم ، ووقعت القرعة على مسألة الكافر ، اذا التجأ الى الحرم ، هل يقتل فيه ام لا؟ فافتى انه لايقتل ، فسئل عن الدليل فقال : قوله تعالى " ولاتقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه " [٢٠]وقرئ ولا تقتلوهم ولا تقاتلوهم ، فان قرئ ولاتقتلوهم فالمسألة نص،وان قرئ ولاتقاتلوهم فهو تنبيه لانه اذا نهى عن القتال الذي هو سبب القتل كان دليلاً بينا ظاهرا على النهي عن القتل .

فاعترض عليه القاضي الريحاني منتصرا للشافعي ومالك وان لم ير مذهبهما على العادة . فقال :هذة الاية منسوخة بقوله تعالى " فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم "[٢١] . فقال له الصاغاني: هذا لايليق بمنصب القاضي وعلمه فان هذه الاية التي اعترضت بها على عامة في الاماكن

،والاية التي احتججت بها خاصة ولايجوز لاحد ان يقول ان العام ينسخ الخاص ، فابهت القاضي الربحاني وهذا من بديع الكلام)[٢٢] .

وتذاكر بالمسجد الاقصى مع شيخه ابي بكر الطرطوشي في حديث ابي ثعلبة المرفوع (ان من ورائكم اياماً للعامل فيها اجر خمسين منكم،فقالوا :بل منهم ،فقال : بل منكم ، لانكم تجدون على الخير اعوانا وهم لايجدون عليه اعوانا) قال ابن العربي :وتفاوضنا كيف يكون اجر من يأتي من الامة اضعاف اجر الصحابة مع انهم قد اسسوا الاسلام وعضدوا الدين وافتتحوا الامصار وقد قال (ﷺ) في الصحيح : (لو انفق احدكم كل يوم مثل احد ذهبا ما بلغ احدهم ولانصيفه) ولابن العربي وشيخه في ذلك حواراً طويلاً فلينظر .[٢٣]

ولم يغفل ابن العربي ذكر من كان يعطر اجواء المدينة بتلاوة القران الكريم بصوت ندي يستوقف السامعين فقال : (كان ابن الكازروني يأوى الى المسجد الاقصى، ثم تمتعنا به ثلاث سنوات ، ولقد كان يقرأ في مهد عيسى (عليه السلام) ، فيسمع من الطور فلايقدر احد ان يصنع شيئاً دون قراءته الا الاصغاء اليه) .[٢٤]

ومن فوائد رحلة ابن العربي وصفه (الصخرة الشريفة) فقد ورد في كتابه " القبس في شرح موطأ الامام مالك بن انس " ما نصه : (ومن عجائب الله تعالى في ارضه فانها صخرة شعثاء في وسط المسجد الاقصى قد انقطعت من كل جهة لايمسكها الا الذي يمسك السموات ان تقع على الارض الا بأذنه، في اعلاها من جهة الجنوب قدم النبي (ﷺ) حين ركب البراق وقد مالت من تلك الجهة لهيبته وفي الجهة الاخرى اثر اصابع الملائكة التي امسكتها اذ مالت به ومن تحتها الغار الذي انفصلت

عنه من كل جهة عليه باب يفتح للناس للصلوات والاعتكاف فهبتها مدة ان ادخل تحتها لاني كنت اخاف ان تسقط علي بالذنوب، ثم رايت الظلمة والمجاهرين بالمعاصي يدخلونها ثم يخرجون سالمين فهممت ان ادخلها ثم قلت ولعلهم امهلوا ،واعاجل فتوقفت مدة ... فدخلتها فرايت العجب العجاب يمشي في جانبها من كل جهة فتراها منفصلة عن الارض لايتصل بها من الارض شئ وبعض الجهات اشد انفصالاً من بعض .[٢٥]

واما ابو عبد الله محمد بن محمد العبدري (كان حياً سنة ٦٨٩هـ) صاحب الرحلة المغربية ، فقد دخل القدس الشريف في منتصف محرم من سنة (٦٨٩هـ) في طريق العودة الى بلاده بعد اداء فريضة الحج ولم يمكث فيها الا خمسة ايام فقط، وقد عرض العبدري بعبارات مسجوعة وباختصار شديد فضائل مدينة القدس ومكانتها في نفوس المسلمين ثم قال : (والبلد مدينة كبيرة منيعة محكمة كلها من صخر منحوت على نشز غليظ مقطوع بجبهات الاودية وسورها مهدوم هدمة الملك الظاهر خوفا من استيلاء الروم عليها وامتناعهم بها، والخراب فيها فاش وليس فيها نهر ولابستان وحواليها تلال مشرفة عليها ،وبها كنيسة معظمة عند النصارى يحجونها في كل عام وهي التي يزعمون ان فيها قبر عيسى عليه السلام وعلى كل من يحجها فيهم ضريبة معلومة للمسلمين،وبها رباطان متقاربان في غاية الاتقان بنى احدهما الملك المنصور ،وبنى الاخر الامير علاء الدين الاعمى، وفي كليهما رزق جار للمنقطعين وابناء السبيل).[٢٦]

ووصف المسجد الاقصى فقال : (... من المساجد الرائعة العجيبة المنشرحة الفسيحة وهو متسع جداً طولاً وعرضاً) واعتمد في تقدير طوله وعرضه على ابي عبيد البكري (ت٤٨٧هـ) وعنه نقل ان طوله سبعمائة واثنان وخمسون ذراعاً وعرضه اربعمائة وخمسة وثلاثون[٢٧]. وعن ابوابه قال : (وله ابواب كثيرة من الشرق والغرب والشمال ولا اعلم له باباً قبلياً سوى الباب الذي يدخل منه الامام وذكر بعض الناس ان عددها خمسون باباً) [٢٨]، ويواصل العبدري كلامه عن المسجد الاقصى بقوله : (والمسجد كله فضاء غير مسقف الا الناحية الغربية فهناك مسجد مسقف في نهاية الاحكام واتقان العمل وفيه تزويق كثير وتذهيب رائع ... وفي ناحية الشرق مواضع مسقفة مع طول الحائط وعلى الابواب وهنالك موضع مهد عيسى عليه السلام يقصد للركوع فيه والتبرك به ... وفي وسط فضاء المسجد قبة الصخرة وهي من اعجب المباني الموضوعة في الارض واتقنها واغربها قد نالت من كل حسن بديع اوفر حصة ... وصفتها انها قبة مثمنة على نشز في وسط المسجد ويطلع عليها في درج من رخام وقد احاط بها ولها اربعة ابواب والدائر مفروش بالرخام المحكم الصنعة وداخلها كذلك، وفي ظاهرها وباطنها من انواع التزويق ما يقصر عنه الوصف ، واما الذهب فما رأيته مبتذلاً في شئ كابتذاله في هذه القبة ــ حتى لقد غشي به اكثرها ظاهراً وباطناً فهي تتلألأ ساطعة الانوار ... وقد ذهب الاعلى من ظاهرها الى حد التسقيف والبس سقفها لين الرصاص المحكم الالصاق حتى صار جسداً واحداً، واما باطنها فيكل عن وصفه اللسان).[٢٩]

ووصف الصخرة الشريفة التي عرج منها الرسول (ﷺ) بقولـــه : (وهي صخرة صماء علوها اقل من القامة وتحتها شبه مغارة على مقدار بيت صغير يعلو قدر القامة ، وينزل اليه في درج وقد هيئ له محـــراب وسوي واتقن وعلى الصخرة شباكان محكمان يغلقان عليها ، احدهما وهو الخارج من الخشب والاخرمن حديد اصفر محكم العمل بديع الصنعة،وفي القبة صورة درقة كبيرة من حديد معلقة هنالك واظنها كانت مرآة ولكنـــها قد صدئت وزال صقالها والعوام تقول انها درقة حمزة واشـــتهر عندهـــم هذا الزور حتى صار في حد المقطوع به).[٣٠]

واذا كان هم العبدري الاعتناء باهل العلم شأنه فـــي ذلـــك شـــأن الاخرين فان الحركة العلمية في القدس ما كانت بحيث تشكل عنده عنصرا من عناصر الاغراء للبقاء في المدينة مدة اطول فالحال كما قال : (ولـــم ار في هذا البلد مع شرفة واشتهاره من هو اهل لاخذ العلم عنه ولا معنيـــا به الا شيخا هو قاضي البلد يلقب ببدر الدين ،وهو محمد بن ابراهيم بـــن سعد ابن جماعة)[٣١] ، وكان لابن جماعة على حسب مـــا ذكـــره عنـــه مجلس علم يدرس فيه اول النهار في المسجد الاقصـــى عنـــد المحـــراب ومجلس سماع يروي فيه بعد صلاة العصر من كل يوم جمعة فـــي قبـــة الصخرة ، وحضر العبدري كلا المجلسين فلم يقتنع بعلوم الشيخ،ولارضي عن مؤلفاته ووصفه بالجهل والتخبط، وقلة الهمة والراوية عـــن اقرانـــه ،واتهمه بالسطو على مؤلفات الاخرين، [٣٢]وهذه عادة العبدري ، فقد اخـــذ عليه الباحثين طريقته في كثرة الذم للبلاد والعباد حتـــى قـــال احدهـــم : (ولو امكنه ان يقول في الحرمين هجوا لقال) .[٣٣]

ووصل ابن بطوطة (ت٧٧٩هـــ) القـــدس الشـــريف فـــي ســـنة (٧٢٦هـــ) فوجد سورها مهدوما، هدمه الملك الظـــاهر خوفـــا مـــن ان

يقصدها الصليبيين فيمتنعوا بها ثم قال : (ولم يكن لهذه المدينة نهر فيما تقدم وجلب لها الماء في هذا العهد الامير سيف الدين تنكيز امير دمشق)[٣٤] ، وباستثناء هذه المعلومة عن جلب الماء فان ابن بطوطة او مدون رحلته قد اقتبس ما يخص المسجد الاقصى وقبة الصخرة،والصخرة الشريفة من رحلة العبدري وليس في رحلته ما يضيف جديداً على حال المدينة وآثارها المقدسة .[٣٥]

ودخل ابو البقاء خالد البلوي (الذي كان حياً بعد سنة ٧٦٧هـ) مدينة القدس الشريف يوم الاحد الثاني عشر من شعبان سنة (٧٣٧هـ)،وغادرها في طريقه الى الحجاز في يوم الاربعاء الثاني عشو من شوال[٣٦]، ورحلته (تاج المفرق في تحلية علماء المشرق) قد تضمنت معلومات قيمة عن مدينة القدس وآثارها المقدسة ، وشيوخها الذين لقيهم وسمع منهم ، فالمدينة كما قال في رحلته (واسعة الرقعة طيبة البقعة ... مباركة الاغوار والقلاع عذبة المراء، منمة الايراد، ممرعة الجنبات،متنوعة النبات، ممدودة الظلال،مودودة الخلال، ضخمة البناء،واسعة الفناء ... قد اخذت من كل المحاسن نصيب)[٣٧]وواضح من كلامه ان المدينة قد جازت خلال مدة ثمان واربعين سنة ، وهي المدة ما بين رحلة العبدري ورحلته- مرحلة التقدم والازدهار، وشهدت نشاطاً عمرانياً اعلاها رونقاً وجمالاً .

وبعد ن وصف المسجد الاقصى بما يليق ،وذكر فضائله المأثورة عرض لاهم مشهداته بقوله : (... وهذا المسجد الشريف هو اعظم مساجد الدنيا طوله سبعمائة وثمانون ذراعاً،وعرضه اربعمائة وخمسون ذراعاً... وسواريه ارعمائة واربع عشرة سارية ، وابوابه خمسون باباً،بطيف به سور سعته ثلاث خطوات قد اسس بالحجارة القديمة ...

والمفتوحة من ابوابه اثنا عشر باباً...) وكل باب من هذه الابواب قد اعتنى الصانعون بنقوشها وتزيينها وتصفيحها ،وفي الجهة القبلية المسجد الاعظم الذي عليه اليوم اسم المسجد الاقصى فيه الخطبة والجمعة والمنبر الذي جمع في صنعه من كل ابداع عجيب،وجميع سواري المسجد مفضضة ملونة بالوان شتى من حمرة قانية وصفرة فاقعة وبياض من ناصع الى غير ذلك من الالوان وكلها مطلية الرؤوس بالذهب الذائب والتبر الخالص (وقد قامت بين يد المحراب منتظمة به عظيمة جليلة منقسمة الى افنان معقودة باقواس متراكبة مدخلة على الوان شتى مشجر مورق بالذهب، معشق محكم قد رونق الحسن استتمامها واستوفت من خطوط البراعة اقسامها لها منظر رائع ورواء لامع فتراها تشتعل ذهباً وتستقل عجباً)[٣٨] وباعلى محراب المسجد مكتوب بالذهب (امر بتجديد المحراب المقدس وعمارة المسجد الاقصى يوسف بن ايوب المظفر الملك الناصر صلاح الدين والدنيا ، عندما فتحه الله على يديه في شهور سنة ٥٨٣ هـ) [٣٩]وبشرقي هذا المسجد مسجد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه،وبخارج المسجد الاعظم من ناحية المشرق مسجد بقبتين يعرف بمسجد عيسى عليه السلام،وفي شرقية باب يفضي الى مكان يقال له مهد عيسى عليه السلام ،وبغربية مسجد المغاربة،وبخارج المسجد الاعظم صحن واسع مزروع بانواع الثمار واكثرها الزيتون ،وفي وسط هذا الصحن صحن اخر على مرتفع من الارض يصعد اليه بادراج كثيرة من جهات ثمانية،وكله مفروش بالرخام الابيض، وفي وسطه قبة الصخرة وهي مثمنة الحائط والاركان من داخلها وخارجها ، اعلاها ذهب مضروب في صنائع عجيبة ،وجوانبها كلها من داخلها ملبسة بالواح الرخام المنثور

الملصق الصاقاً محكماً مخططاً بخطوط كحلية فجاء اية من ايـــات الفـــن .وفي وسط القبة المثمنة ، قبة اخرى مرتفعة في غاية الحســـن مكتـــوب عليها كما ذكر :(ان تجديد تذهيب القبة كان زمن الملك المنصور قلاوون في سنة ٧١٨هـــ) .[٤٠]

واما الصخرة الشريفة فهي تحت القبة انفة الذكـــر وقـــد وصفـــها بقوله: (وهي كالجبل الراسي والطود العظيم معلقة وسط الفضـــاء بيـــن الارض والسماء لا صعوداً ولانزولاً، انما يمسكها الذي يمسك الســـموات والارض ان تزولا،وقد انصنع بهذه الصخرة الشريفة ، والبنيان لدائر بـــها نوع مغارة كبيرة تفضي اليها ادراج جملتها خمسة عشر درجات وفيـــها سطح مفروش بالرخام،وهو موضع مبارك للصلاة وفي الطرف القبلي من الصخرة الشريفة اثر قدم النبي (ﷺ) يتبرك بـــه النـــاس ،وقـــد طـــاف بالصخرة شباك من العود وبعده شباك اخر من الحديد ، وبين الشـــباكين فضاء واسع للصلاة وللقبة المثمنة اربعة ابواب يدخل منها الناس).[٤١]

وفي الجهات الغربية والجوفية قباب مختلفة منها قبة الركن الشرقي وقبة المعراج،وقبة الميزان وقبة موسى، وقبة سليمان ، وفي كل مســـجد من المساجد، وفي كل مدرسة وفي كل قبة امام عاكف به قائم عليه ،وقال : (ولقد عددت موضع الاشفاع وصلاة التراويح بها في شـــهر رمضـــان فكانت نحو الاربعين موضعاً) .[٤٢]

وقد اتى البلوي على وصف بعض المدارس والـــترب والامـــاكن المقدسة الاخرى، وافرد باباً جمع فيه فضائل بيت المقدس ، وبـــه ختـــم حديثه .[٤٣]

وليس هذا فحسب ففي رحلة البلوي لمحات وصفية قلما نجدها فـــي رحلة اخرى ، من ذلك وصفه لدار شيخه عبد الرحيم بن جماعة [٤٤]امـــام

وخطيب المسجد الاقصى ، فقد قال : (لقيته بالمسجد الاقصى ، فادخلني الى منزله الكريم الذي التصقت بابه بمحراب ذلك المسجد العظيم ، فرأيت منزلاً جليل القدر، سامي النظر، مكلل الجوانب، مرصع الازر، فذهلت في نقشه، وخجلت وطئ فرشه ، ثم ذكرت ما اعده الله لاوليائه في دار كرامته من النعيم المقيم وتلوت " قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم " ،وقد سفرت في زوايا مجالسه خدود الورد الغض وتراكمت سحائبه بعضها فوق بعض ، فعجبت من ظهوره في غير ايامه واكببت على انتشاقه والتثامه).[٤٥]

ومن فضائل الشيخ صلاح الدين العلائي (ت٧٦١هـ) [٤٦]في شهر رمضان مما ذكره البلوي بقوله : (وقد شاهدته بطول الشهر وقد اختص به ،واحتل بمنزله من طلبة العلم وغيرهم ما ينيف على الاربعين رجلا سوى عائلته والجميع من عنده يأكلون ، واليه ينضمون ويأوون ، فسألت عن ذلك فقيل لي ذلك دابه وعادته في رمضان من كل سنة) .[٤٧]

ومما تقدم يتوضح بجلاء حال المدينة ومسجدها الاقصى ودورها في الحياة الفكرية ، وواضح من كلام ابن العربي ان معاهد المدينة واماكن التدريس بها كانت عامرة بشيوخ العلم وطلابه من المهتمين بعلوم الرواية والدراية ، فضلاً عن مجالس اخرى احتفلت بالمتناظرين من كافة الاجناس والاديان والطوائف ، فقد كانت المناظرات العلمية تأخذ ابعادها الفكرية الحرة بين المسلمين والنصارى واليهود ،وبين شيوخ المذاهب الاسلامية من شافعية وحنفية وغيرهما ، وهذه الاجواء الحية بهرت ابن العربي وبعثت في نفسه رغبة شديدة للاستفادة والاستزادة من المجالس وشيوخها ، فمكث كما ذكرنا في المدينة ثلاث سنوات متابعاً للحركة

الفكرية متابعة حثيثة حتى انه رفض مصاحبة والده لاداء فريضة الحج وتخلف عنه ليتابع حركة علم لم يالفها في بلاده .

وتبدو هذه الصورة قاتمة في رحلة العبدري الذي دخل المدينة في الربع الاخير من القرن السابع الهجري ، والحقيقة ان ما جاء به العبدري عن القدس وشيوخها لايعد دليلاً يوثق للحياة الفكرية فيها ، فقد انكر فضل شيوخ القدس والوافدين اليها من العلم ،وكذلك غمط حق الشيخ الوحيد الذي لقيه وسمع منه وهو ابن جماعة خطيب وامام المسجد الاقصى ، فهو لم ينج من تجريحه واللمز بمؤلفاته، وقد سبق وان اشرنا الى ان العبدري لم يمكث في المدينة غير خمسة ايام فقط ،وقد قاربه في الرحلة ودخول القدس ابن جابر الوادياشي (ت٧٤٩هـ) وفي برنامج شيوخه من المؤلفات والمرويات عن شيوخ القدس مايسقط زعم العبدري ويبطل قوله[٤٨] ، بل ان واقع الحال هوعكس ما ذهب اليه العبدري ،فبداية نهوض المدينة وازدهارها بعد محن مرت بها ، قد بدأت على وجه التقريب في تلك المدة من تاريخها ، وعندما دخلها البلوي سنة (٧٣٧هـ) وجدها مدينة واسعة الرقعة ممدودة الظلال، ضخمة البناء، واسعة الفناء، وكان الاهتمام بمقدساتها ومنشاتها العلمية محط انظار سلاطين العصر حتى بلغت الغاية من السعة والازدهار في القرن التاسع الهجري .

ولايوجد ثمة اختلاف كبير بين وصف العبدري للاماكن المقدسة ووصف البلوي اللهم الا في ذرع طول وعرض المسجد الاقصى وهو فرق يسير بالنسبه لقياس ذلك الزمن ،وما شهدته قبة الصخرة وغيرها من المقدسات من تجديد ،تزيين على يد السلاطين ،وكان اول امرة في القرن الثامن الهجري كما هو مذكور في رحلة البلوي،وفي جميع الاحوال تظل رحلة البلوي من اكثر الرحلات دقة وسعة وصف لكل معالم مدينة القدس

المشهور منها وغير المشهور،مع ميزة في توثيق اعمال السلاطين في اعمار وتوسيع وتزيين الاماكن المقدسة .

وتبقى الصخرة الشريفة ووصفها أمرا مشكلاً ، فابن العربي والبلوي يؤكدان على انها كانت معلقة بالهواء دون واسطة ،واذا كان الوضع كما قالا فان العبدري لم يجد في وضع الصخرة الشرفية ما يثير العجب فوصفها وكأنها محاطة ببناء ، ولو كانت معلقة في الهواء وقائمة دون واسطة من بناء او غيره لما تخلف عن التنويه بهذا الوضع الذي هو من عجائب هذه الصخرة،وليس المقصود من هذا توهين قول ابن العربي فليس ثمة ما يدعو الرجل الى اختلاق الاباطيل ،وقد مكث في القدس مدة ثلاث سنوات او تزيد ،ووقف بها عن قرب على كل اثار المدينة المقدسة،وعمائرها وقفة عارف محقق، وبمثل قوله قال البلوي ايضاً في القرن الثامن الهجري .

ومهما يكن من امر فحال ووضع الصخرة الشريفة كان كما وصفه مجير الدين الحنبلي بقوله : (والمشهور عند الناس ان الصخرة معلقة بين السماء والارض ،وحكي انها استمرت على ذلك..فبنى حولها هذا البناء المستدير حتى استتر امرها عن اعين الناس) .[٤٩]

هوامش البحث:

١- الاسراء ، اية رقم(١) .

٢- البخاري ، صحيح ط، القاهرة ١٩٥٨ ، ٢/٧٦ ، (باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة).

٣- ينظر على سبيل المثال ، تفسير ابن عباس ،مصر ، مكتبة الجمهورية ،ص٢٧٣ و ٣٧٣ ،تفسير ابن كثير ،ط، عيسى البابي الحلبي ،مصر ٣/١٨٤و ١٨٥ ، صحيح البخاري :٥/٦٦ ، البلوي تاج المفرق في تحلية علماء المشرق ، تحقيق حسن الشائح ،ط المغرب ،١/٢٥٥،، وما بعدها مجير الدين الحنبلي ، الانس الجليل،عمان،١٩٧٣، ١/٢٢٦ وما بعدها .

٤- الانس الجليل :٢/٢٣-٤٩.

٥- مجير الدين :٢/٤٥٢.

٦- مجير الدين :٢/١٥و١٦.

٧- مجير الدين :٢/٣١.

٨- مجير الدين : ٢/٤٦.

٩- مجير الدين : ٢/٤٥و ٤٦.

١٠- حقق الدكتور احسان عباس جزءاً من رحلة ابن العربي الى المشرق ونشرها تحت عنوان :رحلة ابن العربي الى المشرق كما صورها قانون التأويل " في مجلة الابحاث ج٢ وج٣ ، بيروت ،١٩٦٣ ،ولم اتمكن من الوقوف عليها عند كتابة هذا البحث ، وقد استوعب المقري في كتابيه نفح الطيب وازهار الرياض الكثير من صفحات هذه الرحلة وكذلك عبد المهدي في كتابه المدارس في بيت المقدس .

١١- ترجم له : ابن بشكوال ،الصلة ، الدار المصرية ، ١٩٦٦، ص٥٩٠ ،الضبي ، بغية المتلمس الدار المصرية ، ص٩٢ ، ابن سعيد ،المغرب تحقيق شوقي ضيف ،دار المعارف ،القاهرة ،٩٦٤، ٢٤٩/١،ابن خلكان ،وفيات الاعيان ،تحقيق احسان عباس ،٤٩٦/٤.

١٢- المقري ،نفح الطيب ،تحقيق احسان عباس ،٣٧/٢و ٤٢، ازهار الرياض ،تحقيق مصطفى السقا واخرون ، الرباط ، ١٩٧٨، ٩٤/٣ و٩٥.

١٣- حققها الاستاذ محمد الفاسي وطبعت في الرباط ، ١٩٦٨.

١٤- ترجم له ابن القاضي ،جذوة الاقتباس ،دار المنصور ،الرباط ،١٩٧٤،ص٧٦،ابن مخلوف ،شجرة النور ،ط السلفية ،١٣٤٩هـ،٢١٧/١.

١٥- ينظر الرحلة ،مقدمة المحقق علي المنتصر الكناني ،١٥/١ وما بعدها .

١٦- الرحلة ،٧٨/١.

١٧- ترجم له ،ابن الخطيب ،الاحاطة تحقيق محمد عنان ،٥٠٨/١، الكتيبة الكامنة ،تحقيق احسان عباس ،بيروت ١٩٦٣، ص١٣٤، احمد بابا ،نيل الابتهاج ،تحقيق ناطق صالح مطلوب ، رسالة ماجستير مكتوبة على الالة الكاتبة ورقة ٣١٢، السراج ، الحلل السندسية في الاخبار التونسية ،تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، الدار التونسية ،١٩٧٠، ،ج١ ق٣ ص ٦٤٧، ابن القاضي ،جذوة الاقتباس :١٨٦/١.

١٨- عبد المهدي ،الحركة الفكرية ص٣٢.

١٩- عبد المهدي :ص٢١و ٢٣.

٢٠- البقرة ،الاية ١٩١.

٢١- التوبة ،الاية ٥.

٢٢- ابن العربي ،احكام القران ،تحقيق علي البجاري ،١٠٧/١و ١٠٨.

٢٣- المقري ،نفح الطيب ،٣٨/٢و ٣٩.

٢٤- المقري ،نفح الطيب ٤٢/٢.

٢٥- مجير الدين ، الانس ١٨/٢.

٢٦- الرحلة المغربية ،ص٢٢٨.

٢٧- الرحلة المغربية ،ص٢٢٩.

٢٨- الرحلة المغربية ،ص٢٢٩.

٢٩- الرحلة المغربية ،ص٢٣٠.

٣٠- الرحلة المغربية ،ص٣٣٠.

٣١- ولي خطابة وامامة المسجد الاقصى وقضاء القدس الشريف سنة ٦٨٧ هـ وولي القضاء بمصر ودمشق وتصر للتدريس في القدس ،توفي سنة ٧٣٣ هـ، ينظر الاسنوي ،طبقات الشافعية ،تحقيق عبد الله الجبوري ٣٨٦/١،السبكي ،طبقات الشافعية ،الحسينية ،٢٣٠/٥.

٣٢- الرحلة المغربية ،ص٢٣٠.

٣٣- الرحلة المغربية ،المقدمة ،ص(م) .

٣٤- تحفة النظار، ٧٦/١.

٣٥- تحفة النظار ،٧٦/١، وقارون رحلة العبدري ص٢٢٩و ٢٣٠.

٣٦- تاج المفرق ،٢٤٥/١و ٢٧٥و ٢٦٠.

٣٧- تاج المفرق ،٢٤٥/١.

٣٨- تاج المفرق ،١/٢٤٧.

٣٩- تاج المفرق ،١/٢٤٧.

٤٠- تاج المفرق، ٢٤٧-٢٤٩.

٤١- تاج المفرق ،١/٢٥١.

٤٢- تاج المفرق ، ١/٢٥٣.

٤٣- تاج المفرق ، ١/٢٥٥و٢٥٦ .

٤٤- هو ، ولد بدر الدين بن جماعة (ت٧٣٩هـ) ولي امامة وخطابة المسجد الاقصى وجلس للتدريس ، قرأ عليه البلوي جميع مؤلفاته ومؤلفات والده واجازه . تاج المفرق : ١/٢٥٧ وينظر : الذهبي :ذيل العبر ،تحقيق رشاد عبد المطلب ،ص٢١٠.

٤٥- تاج المفرق ،١/٢٥٦.

٤٦- خليل بن كيكداي بن عبد الله (ت ٧٦١هت) نزيل القدس الشريف ومن شيوخها فيها سمع منه البلوي مؤلفاته وديانته ،تاج المفرق ،١/٢٥٨،وينظر :الاسنوي ،طبقات الشافعية ،٢/٢٣٩.

٤٧- تاج المفرق ،١/٢٦٠.

٤٨- ينظر برنامج الوادياشي :تحقيق محمد محفوظ ،ط١،١٩٨٠ ، الصفحات :/٤٢و ٤٣و ٤٩و ٩١و ٩٢و ٩٥و ٩٨و ١٠٤و ١٨٦و ٢٣٠ ٢٦٥ و ٢٦٦و ٢٧٥و ٣٠٠.

٤٩- الانس الجليل ،٢/١٨.